محاضرة التواجد البشري في شمال افريقيا

نظرية التطور :

لقد ساد نقاش كبير في الماضي وفي الحاضر حول نظرية التطور التي تدعي أن الأجداد الأوائل للإنسان هم القردة وهو ما يخالف التعاليم الدينية لجميع الأديان، وبالنسبة لنا فإنه لا شك أن الإنسان قد حدثت عليه عملية تطور فالإنسان الأول مختلف على الإنسان الحالي، ولكنه تطور في النوع البشري في حد ذاته دون أن يكن منحدر من جنس آخر، فالناس القدماء كانوا يعمرون طويلا مثل سيدنا نوح عليه السلام وهو ما يعني تركيبة جسمية مختلفة عنا ، قال الله تعالى :« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » سورة العنكبوت، الآية 14 .

وبعضهم أعطاهم الله قدرات جسمية كبيرة وهم قوم هود عليه السلام ، فقد قال تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » سورة الأعراف، الآية 69 ، وجاء في آيات أخرى أن الله كرم بني آدم ، فقد قال تعالى: « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » سورة التين، الآية 04 ، وقال أيضا : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »، سورة الإسراء، الآية 70.

ولا شك أن الأجناس البشرية التي وجدت بقاياها في مختلف المناطق والتي أعطى لها الباحثون أسماء مختلفة، ماهية إلا تغيرات حدثت على الإنسان عبر الزمن والله تعالى يأتي بخلق بعد خلق ، فقد قال عز وجل : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»، سورة إبراهيم، الآية 19 .

السلالات البشرية التي عمرت الأرض :

مع نهاية الزمن الثالث ظهرت سلالات من القردة المتطورة فى أماكن مختلفة من أفريقيا سماها العلماء باسم القرد الجنوبي "استرالوبثيكس" Australopithecusوقد وجدت حفريات لها تعود إلى حوالي 4.5 مليون سنة، وقد

عثر العلماء على سلالات مختلفة عن بعضها فقد وجد إحداها في منطقة "عفار" بأثيوبيا وعرف في الأوساط العلمية بAustralopithecus afarensis ، ووجد نوع آخر في وسط إفريقيا عرف باسم "إنسان القرد الجنوبي لبحر الغزال" Australopithecus bahrelghazali ، لكن أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام هو الاكتشاف الذي تم في إثيوبيا عام 1974 وسماه العلماء "لوسى" وقد قدر عمره بحوالي 3.2 مليون سنة، ويعتبر" لوسى" كائنا منتصب القامة وله مخ حجمه مثل حجم مخ الشمبانزى، وهي تعتبر أقدم الكائنات الشبيهة بالإنسان بل إن الكثيرين من يعتبرون هذا الكائن مرحلة وسطى بين الإنسان و عائلة القرد الجنوبي (استرالوبيثيكس).

وبداية من حوالي 2 مليون سنة ظهر الأجداد القدامى للإنسان، وكان أول جنس في هذه السلسلة البشرية هو الإنسان الماهرHomo habilus الذي تواجد بين حوالي 2 مليون سنة و مليون سنة، واكتشفت مواقعه في منطقة ألدوفاي بتنزانيا وفي كوبي فارا بكينيا وفي إثيوبيا و جنوب إفريقيا وهو يعتبر أقدم الأنواع الآدمية ، وكان حجم مخه أكبر من حجم مخ "لوسي" وقد اكتشفت حفرياته مع أدوات حجريه بدائية، مما يدل على أنه أول من صنع الأدوات الحجرية .

ونشير هنا إلى اختلاف الباحثين حول من أول من قام بتشذيب الحجارة، فحسب الباحثة" أوماسيب" فإن الصناعة الحجرية الأولى تعود إلى 2.6 مليون سنة وهي لا تمثل جنس واحد بل تعود إلى ثلاثة أجناس معاصرة لبعضها البعض، وهي: الإنسان القردي بوازي Australopithecus boisei، والإنسان القردي المتين Australopithecus robustus والإنسان الماهر Homo habilis، بينما يرى آخرون أن الصناعة الأولى تعود إلى الإنسان "شبه القردي"، أما الباحث "هنري لوهيرو" فيرى أن حضارة الحصى المشذبة[1] تنسب إلى كل من الإنسان شبه القردي والإنسان الماهر اللذان كانا يعيشان في وقت واحد ، وقد قيل بأنه قد ظهر بعد

[1] الحجارة المشذبة هي أقدم أشكال الصناعة الحجرية ظهرت في البداية في شرق أفريقيا حيث تنسب الحضارة الألدوانية إلى موقع ألدوفاي الذي وجدت فيه حجارة مشذبة وهي الأقدم في العالم.

الإنسان الماهر نوع آخر هو الإنسان العامل Homo. Ergaster الذي عاش بين 1.8 و1.3 مليون سنة لكن بقاياه لم تتواجد في كامل المواقع .

أما الجنس الثاني الذي عمر الأرض فهو الإنسان المعتدلerectus homo وهو يمثل المجموعات الإنسانية التي عاشت ما بين 1.8مليون سنة و 300 ألف سنة ويتكون من عدة فروع أهمها: "إنسان جاوة " ويسمى علمياPithecanthropus، والثاني هو "إنسان بيكين" ويسمى علميا Sinanthropes ، وقد عرف تطورات حضارية مهمة فقد عرف النار وإليه تعود الحضارة الأشولية، وقد اكتشفت بقاياه في بلاد المغرب ويسمي" إنسان الأطلس" عثر عليه في تغنيف بمعسكر وفي موقع الرباط، إلا أن حضارته تنتشر في كل أنحاء شمال إفريقيا وقد أرخت بقاياه في تغنيف بحوالي 0,7 مليون سنة وفي الرباط بحوالي 120 ألف سنة.

وفي الوقت الذي كانت سلالة الإنسان المعتدل تعمر الأرض ظهر نوع آخر أكثر تطوراً هو إنسان "هايلبرغ " الذي وجدت بقاياه لأول مرة ثم وجدت في مناطق مختلفة من أوروبا، وكان هذا النوع يملك دماغ أكبر من المجموعات السابقة حيث يتراوح حجم مخه بين 1100 و1400سم^3، و كان يدفن موتاه ويدهن الجثث بالمغرة مما يعني انه مارس شعائر دينية وسحرية ، وقد عاش هذا النوع بين حوالي 700 ألف و 200 ألف سنة.

ومنذ حوالي 400 ألف سنة ظهر جنس جديد أكثر تطور من الأنواع السابقة هو إنسان "نيادرتال" الذي استمر في التواجد إلى 30 ألف سنة، وقيل بأنه استمر في التواجد بعد ذلك أيضا فقد أرخت مواقع متأخرة له في موقع "بيزافايا" في الأورال شمال روسيا ب 27000 قبل الحاضر، وأرّخت بقايا أخرى له في مضيق جبل طارق وفي جنوب البرتغال بحوالي 30ألف سنة قبل الحاضر .

ولم يتواجد هذا الإنسان في شمال إفريقيا أو في الصحراء، في حين وجد نوع محلي يدعي إنسان "جبل إيغود" الذي عثر عليه بالمغرب الأقصى الذي يعود إلى ما يقارب 70ألف سنة وإنسان "كهف هوافتيح" الذي عثر عليه في ليبيا وهو يشبه إنسان

"نيادرتال" الذي عثر عليه في فلسطين، مما يعني وجود انتقال سكاني بين المشرق والمغرب وأوروبا، والمعروف أن إنسان نيادرتال هو صاحب الحضارة الموستيرية التي انتشرت في أنحاء العالم.

وبعد موجة إنسان نيادرتال ظهرت موجة الإنسان العاقل الذي كان معاصر له أيضا، يذكر الباحثون أن الإنسان العاقل ربما أختلط وتزاوج مع نيادرتال وربما كان ذلك في الشرق الأوسط وليس في أوروبا أي مباشرة بعد خروج الإنسان العاقل من إفريقيا لأول مرة، وذلك منذ حوالي 200ألف سنة، قد عمر هذا الجنس الأرض بشكل كبير في حوالي 100 ألف سنة، حيث تعود إليه كل من الحضارة الأورجنايسية والسوليتيرية[2] والمجدلانية والغرافيتية [3] والبيروغوردية في أوروبا، أما في شمال إفريقيا فقد انتشرت بعد الحضارة الموستيرية الحضارة العاترية التي انتشرت بشكل واسع ووصلت إلى مصر، وقيل بأنها شملت فترة زمنية تمتد بين 45 ألف سنة و 20 ألف سنة .

وبالنسبة للإنسان صانع الحضارة العاترية فهو بلا شك الإنسان العاقل وقد عثر على بقايا العضوية في الكثير من المواقع بصفة خاصة في المغرب الأقصى حيث عثر على بقاياه في كهف دار السلطان الثاني[4]، وفي كهف الزهرة بالحرحورة وفي كهف تِمارة، ومغارة العالية قرب طنجة وفي موقع الصخيرات قرب الرباط، كما عُثر على بقايا عضوية للعاترية في موقع نزلة الخاطر بمصر العليا.

وقد عاصر الإنسان العاتري إنسان كرومانيونCromagnon الذي انتشر في جنوب أوروبا، وظهر معه في فترة متقاربة إنسان "شانسيلد" فى فرنسا وإنسان "توشكى"

---

[2] السوليتيرية من حضارات الباليوليتي الأعلى ظهرت في جنوب غرب إسبانيا وفي البرتغال في 20ألف قبل الحاضر، ثم بشكل متأخر ظهرت في فرنسا

[3] الغرافيتيةGravettien : كانت هذه الحضارة بين 29 ألف و 19 ألف سنة قبل الميلاد انتشرت في كامل أنحاء أوروبا، وقد أصبحت الأدوات الحجرية والعظمية فيها خفيفة وأكثر دقة وتطورا.

[4] أظهرت الأبحاث التي قام بها فرامباش أن إنسان "دار السلطان" 2 مختلف عن إنسان المشتى ويقترب نوع ما لإنسان "حلفا"، كما يوجد بينه وبين إنسان جبل إيغود بعض الصفات المشتركة، وبذلك فان هذا الإنسان لا يمثل العاترية، فهو بمثابة مرحلة وسطى بين النيادرتاليين وبين "إنسان المشتى

فى مصر وإنسان وادي حلفا بالسودان[5]، أما في بلاد المغرب فقد ظهر إنسان المشتى ممثل الحضارة الايبرومغربية، والذي يتميز بقامته الطويلة التي تتراوح ما بين 1.74 و 1.72 م بالنسبة للرجل وأقل بعدة سنتيمترات بالنسبة للمرأة، كما يتميزون بقلّة الانسجام ما بين الوجه العريض ومحجر العين ذي الشكل الطويل، والأطراف طويلة والمرافق والسيقان ممتدة والأيادي طويلة ورقيقة، أما الرأس فلا يوجد فيه انسجام بين الجمجمة والوجه بسبب الجبهة العريضة المنخفضة كما أن باطن الجمجمة بارز ومنحني، أما محجر المخ فهو ذو حجم كبير يبلغ 1650سم^3، ويتميز المشتايون أيضا بالعضلات القوية.

والمظهر العام للجمجمة يدل على الوجه الواسع، كما أن الفك قوي ومحاجر العين منخفضة ومستطيلة الشكل يعلوها مفرق وقوس الحاجب، وفتحة الأنف متوسطة، أما العظام فهي طويلة وقوية والجسم صلب وقوي وضخم، وقد وجدت بقاياهم في تافوغالت بالمغرب الأقصى حيث عُثر على عدد كبير من البقايا الإنسانية إذا وجدت بقايا لأكثر من 180 فردا من الرجال والنساء والأطفال ، بينما عثر في آفالو بورمال ببجاية على أكثر من 50 فردا.

ويجدر بنا التأكيد على أن الأنواع السابقة من أشباه البشر والبشر الأوائل والسلالات اللاحقة عاشت كلها في عصر البلايستوسين، في ظل ظروف مناخية تتميز بالبرودة وطغيان الجليد، ومع أن الجليد كان ينحصر من وقت لأخر إلا أن الظروف المناخية كانت قاسية، ولم يكن الإنسان يحضى بكمية كافية من الغذاء، ومنذ حوالي 10آلاف سنة تحسن المناخ في مختلف المناطق، وتحسنت معه حياة الإنسان الذي انتشر في كامل المناطق، وفي هذا الوقت ظهر نوع بشري أكثر تطور وهو يمثل اقرب الأنواع إلى الإنسان الحالي عرف في الأوساط العلمي باسم "الإنسان المتوسطي".

---

[5] إنسان وادي حلفا وُجد في النوبة شمال السودان وهو يعود إلى العصر الحجري القديم المتأخر، ويتميز هؤلاء بوجود ملامح مشتركة مع الإنسان المشتاوي، وهذا ما لاحظه الباحث فراد واندورف بشكل كبير في منطقة جبل الصحابة أيضا، ولكن هذا الإنسان الذي ينتمي إلى " كرومانيون" أيضا متأخر في الزمن عن إنسان المشتى، وهو يتميز عنه بانصباب الفك نحو الأمام إلى جانب صفات أخرى مختلفة ، كما أن حضارتهم والتي تسمى الكادية Qadier تختلف عن الإيبرومغربية فهي تتميز بكثرة الأزاميل والمثاقب وقلة النصال مضروبة الظهر.

وقد مثله في شمال إفريقيا الإنسان القفصي، الذي وجدت بقاياه في: "عين متشرم" التونسية، و"خنقة الميهاد" و"عين دوخارة" بتيبازة ، كما وجدت خمسة مدافن أخرى لهم ب فايد السوار (Faïd Souar II) بأم البواقي التي تعود إلى القفصية العليا 7800– 5500 قبل الحاضر، ووجدت بقاياهم في كلومينا‌طة بتيارت أيضا .

والفرق بين الإنسان القفصي وإنسان المشتى هو أن القفصيون أقل غلظة وقساوة من المشتاويون وفق الأبحاث التي قامت بها ماري كلود شاملة، ويتميز الإنسان المشتاوي عن القفصيين بقامته الطويلة وعضلات المفتولة وقوامه الرشيق والقوي، والمعروف أن الإنسان القفصى أقام في المناطق الداخلية وامتد إلى الجنوب، وتركز وجوده في جنوب شرق تونس وشرق الجزائر إلى غاية منطقة أولاد جلال واتجهوا في الألف الرابعة إلى السهول القسنطينية.

إنسان العصر الحجري الحديث في شمال إفريقيا :

تواصل تواجد الإنسان القفصي في العصر الحجري الحديث في شمال إفريقيا فمن خلال الأبحاث التي قام بها غابريل كامبس فإن بعض المواقع توفرت على صناعة مشابهة للصناعة القفصية العليا، وإلى جانب الجنس القفصي تواجد الزنوج بكثافة في شمال إفريقيا وخصوصا في الصحراء، وينتمي بعض هؤلاء الزنوج إلى سلالة "اسيلار" المتواجد في شمال مالي، والذي حدد الباحث أنتا ديوب عمره ب 4400 قبل الميلاد، وحدثت أيضا في فترة العصر الحجري الحديث تحركات سكانية بين الشرق والغرب وبين الصحراء ووادي النيل في أزمنة مختلفة، خاصة في حوالي 5000 قبل الميلاد، وفيما بين 3000 و2000 قبل الميلاد بسبب التحولات المناخية خاصة الجفاف الذي ضرب المنطقة عدة مرات[6] .

وقد تميزت هذه المرحلة أيضا بتعدد بشري وأن كانت ليست لدينا معلومات محددة عن المجموعات البشرية التي كانت تتواجد في ذلك الوقت في شمال إفريقيا، مع أننا

---

[6] حول مختلف التحولات المناخية التي مرت بها منطقة شمال إفريقيا والصحراء، ينظر : بن بو زيد لخضر، التحولات المناخية في الصحراء الوسطى خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، مجلة المعارف، جامعة الوادي، الجزائر ، العدد 05، 2016، ص269-289

نعتقد بأن القفصيون استمروا في التواجد إلى جانب أجناس أخرى، أما في الصحراء فقد وجد فيها الزنوج بكثافة في المرحلة القديمة والوسطى من العصر الحجري الحديث، أما في المرحلة الحديثة فقد تواجد الجنس الأبيض وتقلص وجود الزنوج والسود بشكل كبير، وفي هذه المرحلة ظهر البربر في شمال إفريقيا .

وقد يكون القفصيون هم أجداد البربر، ونشير هنا إلى وجود نقاش كبير حول هذه المسألة بين الباحثين فالذين يقولون بالأصول القفصية للبربر مثل "ليونال بالو" يستدل بالطقوس المدفنية الذي وجدت لدى القفصيين والتي استمرت في التواجد لدى البربر فيما بعد، مع أن الباحث "جون ديسبوا" يرى أن هناك تشابهاً بين الإنسان القفصي وبين إنسان بعض حضارات كينيا ومصر العليا، وفي نفس الوقت يصر على القفصيون هم أجداد للبربر، ويساند الباحث "محمد العربي عقون" نظرية الأصول القفصية للبربر، بينما ترى الباحثة "مليكة حشيد" أن أوائل البربر يشبهون المشتاويون أكثر من حيث الخصائص الأنثروبولوجية.

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن أوائل البربر لم يكونوا من أصلٍ واحد فجزء منهم قد يكون من بقايا المشتاويون الذين سكنوا الجبال بعد غزو الإنسان القفصى لكامل شمال إفريقيا، بينما هناك جزء منهم ينتمي إلى القفصيين نظرا لوجود دلائل على بقاء القفصية إلى غاية الألف الثالثة قبل الميلاد وربما إلى الفترة التاريخية، أما الجزء الثالث المكون لسكان شمال إفريقيا فهم خليط من الشعوب قدمت من الشرق، وإلى جانب ذلك قَدمت هجرات أخرى إلى المنطقة في نهاية النيوليتي من منافذ مختلفة كمضيق جبل طارق ومن صقلية وبعضهم قد يكونوا من "الهكسوس" الذين طُردوا من مصر أو من شعوب البحر الذين تحالفوا مع الليبيين ضد المصريين، وقد يكون جزء منهم من الفنيقيين الذين استقروا في شمال إفريقيا وبقوا فيها إلى غاية وجود الرومان .